رواية أولاد حارتنا والأنماط الأولية

د. غسان غنيم

الملخص:

أثارت رواية"أولاد حارتنا"للكتاب الكبير نجيب محفوظ زوبعة كبيرة حين صدورها...فقد طمحت الرواية إلى تقديم رؤية شاملة لتاريخ المنطقة العربية بأسلوب روائي جميل.

أرادت أن تقول: إن الصراع في منطقتنا يتأجج ويستعر بسبب استئثار فئة قليلة بالناتج الوطني أو القومي – "الوقف" من منطقة الرواية – على حساب الفئات الأوسع.

ولا يعود التوازن النسبي إلى المجتمع إلا بعد عملية صراع يقودها رمز من الرموز ، ويمثل نجيب محفوظ لهذه الرموز بالأنماط الأولية التي رسخت في الذاكرة الجمعية أو في اللاوعي الجمعي الذي يختزل مجموعة أعمال هذه الرموز ويتمنى عودة زمانها بشكل "يوتيبي " رغبة في استعادة العدل والتوازن المفقودين.

ثم يتجلى الصراع عن تركيب جديد . وترجع الأمور عبر أسطورة العود الأبدي التي لا تفتأ تتكرر في أزمنة وحقب يستعيدها التاريخ البشري.

إنها رواية فذة توسلت الأنماط الأولية التي تشكل جزءا من ذاكرة الجماعة الإنسانية وعلى الأخص في منطقتنا العربية في محاولة إنشاء معي حقيقي للصراعات القائمة واستخلاص مقولات تحاول تلخيص آلية الصراع وبعض مفاتيح الحلول ...وفق رؤية جدلية ترى الحل في العلم نبي هذا العصر الذي لا يموت.

ودراستنا تقوم على التحليل بشكل أساسي وليس على مجرد التجميع وهذا ما جعل مصادرها ومراجعها قليلة لتصنيف أشياء في فهم هذه الرواية الإشكالية ولتتصفها وتنصف مبدعها بعيدا عن أية أفكار مسبقة حولها وحول مبدعها.

حضور الأنماط الأولية في رواية "أولاد حارتنا"

تحوّل الكاتب الكبير نجيب محفوظ بعد مرحلة الواقعيّة الطبيعية التي عالج من خلالها الواقع ، إلى مرحلة تفسير هذا الواقع وتحليله ودراسته عبر وسائل فنّية ابتدعها ، ووصل من خلالها إلى مرتبة فنّية وفكرّية عالية جدّا.

وقد تجلى ذلك في العديد من رواياته المتأخرة من مثل "أولا حارتنا" موضوع دراستنا و" الحرافيش" وسواهما ، حتى أنه حين سؤل مرة عن أهم روايته وأقربها إلى نفسه ؟ ...أجاب : إنها " الثلاثية " و " أولاد حارتنا و "الحرافيش "...

وتعد " أولاد حارتنا"رواية من بين أهم روايات هذا المبدع الذي كرَّس حياته لفنِّ الرواية ، فابتدع فيه أشكالاً جديدة وابتكر أساليب حديثة دفعته إليها تجربته في ميدان مزاولته هذا الفن .

ولدى قراءة هذه الرواية الفذة ، لابد أن نتذكر فكرة الأنماط الأولية أو ما دعاه "يونغ" بالنموذج البدئي تلك الصورة الأولية ، والراسب النفسي لتجارب لا تحصى لدى عرق أو نوعٍ واحد .

يقول "لسلي فيدلر":في (قناع حياة الفنان والأقنعة المتضاعفة لعمله ، يعبر الفنان للمجتمع كلّه عن المعنى الشعائري لنفوس أفراده المفكّكة . إن الفنان لا يمضي في سبيله " ليعيد خلق وعي عرقه " ولكن ليسترد لا شعور هذا العرق).[1]

ويقول أيضا : (إن الفنان قادر أن يعود بنا إلى صميم لا شعوره حيث يتوحد معنا كلنا في حضرة آلهتنا القديمة ، وأبطال الحكايات الذين نظن أننا لم نعد نؤمن بهم...)[2]

إنها الأنماط التي تنطوي على مغزىً كونيٍّ عام ، تلك الصور الراسخة عميقا في النفسي البشرية والتي حملت معاني كثيرة في الماضي ، وأعطت الكثير.

ويغلب أن تتجلى الأنماط الأولية من خلال عملية لا شعورية لدى المبدع ، وقد لا يكون الفنان على وعي تام بما ينتج من حيث تلاؤمه مع النموذج الأولي فيأتي إبداعه متوافقا مع تلك النماذج التي اختزنتها الذاكرة العرقية ،فالإنسان الأول ما زال كامنا في كل منا بشكل من الأشكال .

ولكن، قد يقوم الفنان بإعادة إنتاج هذه النماذج الأولية عامدا متعمّدًا ، وهو يقصد بذلك الوصول إلى مغزى ما ، أو ابتداع قضية جاذبة ، فيثبت معرفتنا الخاصة بحياتنا الداخلية والخارجية .

أولا–الإطار والفكرة:

تعرض هذه الرواية قضية الإنسان والإنسانية ، بشكل عام ، وقضية إنساننا العربي بشكل خاص من خلال أسطرة الأفعال في سياق سردي يتبع حكاية الديانات التي شكلت مع بعض الأساطير اللاشعور الجمعي لإنساننا العربي ، وقد أراد كاتبها أن يتعرض لحياة منطقتنا العربية إنساننا من خلال خلق واقع متخيل يتوازى في الآن نفسه مع العالم الواقعي الذي أشيدت هذه الرواية بقصد تحليله لفهمه وإدراكه .. على الرغم من احتفاظ سلسلة الأحداث المروية بأثرها الموهم بالحقيقة ، واحتفاظها بالتالي بالمتعة الفنية الرائعة .

وقد تناولت الرواية تاريخ المنطقة منذ البدء وحتى الوقت الراهن ، عبر إلماعات ذكية تختار من كل مرحلة أبرز ما فيها مما يلخصها ويدل عليها ...ابتداءً ببدايات الكون الأولى ، مرورًا بالديانات السماوية التي عرفتها المنطقة إلى أن تصل إلى مرحلة العلم التي فسرت الكون والطبيعة بشكل مختلف ، وإن كانت الأهداف التي اجتمعت عليها جميع المراحل التي تناولتها الرواية والمناهج والطرائق وحدة وهي إعادة العدل والمساواة إلى ربوع هذه المنطقة التي ما فتئت تشهد صراعا حادا جدا على " الوقف " أو " الثروة القومية " ، ثروة أصحاب هذه الأرض وأهلها ..ومن هنا فإن القصة ليست قصة أنبياء ، وإن توسلت بقصصهم ، حين تجلوا أنماطا أولية ، يتساوى في معرفتهم ومعرفة قصصهم كل أنباء المنطقة أو أبناء المعمورة أيضا .

وقد قرئت الرواية قراءات متعددة ، حيث صدرت منجمة على صفحات جريدة الأهرام في عام 1958، وقد وقف "الأزهر " ضدّها ومنع نشرها ، فلم تنشر في مصر حتى الآن ، بل طبعت غير مرة خارج مصر . فقد رأى الأزهر فيها نوعًا من إلغاء الدين ، وجرأة على الله حين قام "عرفة: وهو رمز العلم في سياق الرواية السردي بقتل شخصية "الجبلاوي وفضح شريعته الخفية التي ظلت مختفية لقرون عديدة ، يسيطر من خلالها " النُّظار والفتَّوات" على عقول الناس وأرواحهم والجبلاوي في السياق الروائي للرواية يرمز إلى " الله " ، ولكن الرواية وللحقيقة لا تريد هذا تحديدًا ..وإنما تريد أشياءَ أخرى سنبينها في جملة النتائج التي سيتوصل إليها التحليل ...

وقد صرَّح الكاتب بجزء من مرامي هذه الرواية في الافتتاحية التي خصّ بها هذه الرواية حين قال : (كلما ضاق أحدٌ بحاله ، أو ناء بظلم أو سوء معاملة أشار إلى البيت الكبير على رأس الحارة من ناحيتها المتصلة بالصحراء، وقال في حسرة :" هذا بيت جدنا ، جميعنا من صلبه، ونحن مستحقو أوقافه ، فلماذا نجوع؟ وكيف نضام ؟!".) [3]

ثانيا : الأنماط الأولية :

تنقسم الرواية إلى خمسة أقسام تبدأ من بداية الخلق ، وتنتهي مع سياق العلم والمعرفة، " أنبياء " هذا العصر الذي يؤمن بهما إيمانا كبيرا جدا يصل حد إيمان الإنسان السابق بالأنبياء وبما أتوا به من مبادئ أخلاقية أو تشريعية أرادوا بها تنظيم المجتمع وعلاقاته آنذاك ، وتتجلى الأنماط الأولية في مجموعة من الأفعال المؤلفة للعمل الروائي ، التي تتوالى في السياق السردي ، وفق منطق الأنماط الأولية ووفق العمل الخاص أيضا ، ومجموعة الأحداث التي تتتابع وتترابط لتحمل معنى يؤديه النص الحكائي كله ..كما تتجلى هذه الأنماط من خلال مجموع الشخصيات الرئيسة والمعاونة . ففي إطار الشخصيات ، يتجلى "الجبلاوي " رب الأسرة الكبير ومؤسسها ، وصاحب البيت الكبير ، والذي بيده كل شيء ، ومنه تنطلق جميع الفضائل وإليه ترجع الأمور ، يعيش في البيت الكبير .. ذلك النمط الموازي للجنة ، إنه نمط أولي " للإله " القادر القوي ، وسوف يظهر هذا من خلال لتجليات الأفعال في سياق التتابع السردي الروائي ..

أما "إدريس" فيتساوي مع نمط إبليس ، مع ملاحظة التوافق الصوتي، و "أدهم: يتوافق مع "آدم" مع ملاحظة التوافق الصوتي أيضا ..وهمام وقدري ابنا "أدهم " يتوافقان ونموذج ابني آدم " هابيل وقابيل " مع ملاحظة توافق بداية الإسمين بحرفي (الهاء والقاف) . أما " جبل " فهو النموذج الأولي لـ"موسى".. وثمة توافق بين اسم جبل وصعود موسى على جبل الطور لتلقي الشريعة ، وهو من أكثر أحداث حياته بروزا ، وأكثرها تأثيرا أيضا.

أما "رفاعة " فهو النموذج الذي يمثل النموذج الأولي " للسيد المسيح عيسى"و" قاسم " يمثل نموذج "محمد (صلى الله عليه وسلم) " مع ملاحظة أن محمدا كان يكنى بـ "أبي القاسم".

أما أميمة " فهي نموذج حواء التي هي أم البشرية " وفق النموذج الديني " والتصغير في " أم " قد يراد به التفخيم والتهويل أحيانا ، وليس التصغير ، فحواء أم كل البشرية وفق التصور الديني . أما "عبدة " أم رفاعة فهي نموذج " مريم العذراء"، أمة الله عندما بشرها الملاك بعيني.

ثمة شخصيات كثيرة نجدها في الرواية ، يمكننا أن نجد أنماطها الموازية، ونكتفي بما ذكر .

أما الأفعال التي تتوازى في الرواية مع الأنماط الأولية للأفعال في الديانات الثلاث فهي كثيرة وتكاد تستوعب الرواية جميعها وتشكل نسيجها الروائي كله .. ويبدأ ذلك منذ البداية ، ولتعذّر استعراض الأفعال والمواقف جميعا ، فإنني سأتناول الأبرز والأكثر تعبيرا من بين الأفعال والمواقف جميعا ، فإنني سأتناول الأبرز والأكثر تعبيرا من بين الأفعال والمواقف التي تتوافق والنمط الأولي.

ففي قسم " أدهم " ممثل "آدم" النموذج الأولي ، وحين (وقف أدهم يوما ينظر إلى ظله في الحديقة ، فإذا بظل جديد يمتد من ظله واشيا بقدوم شخص من المنعطف خلفه ..وبدا الظل الجديد كأنه يخرج من موضع ضلوعه، والتفت وراءه فرأى فتاة سمراء ...) [4]

وهذا ما يتساوى مع ما صنعه الله في النموذج الأولي لحواء حيث ، أخذت من أضلاع آدم . [5]

ثم يتزوج أدهم أميمة ، ويعيشان سعادة غامرة إلى أن يأتي "إدريس" ونموذجه الأولي " إبليس" ويستعطف أدهم للإطلاع على وصية ولده ليطمئن إلى أنه لم يحرمه من الميراث كما ادعى ولمعرفة الشروط العشرة التي وضعها الجبلاوي فيقص أدهم ما حدّثه به أخوه إدريس على امرأته التي توسوس له وتزين له الفعلة النكراء المتمثلة في الرغبة في المعرفة.

وهذا كله يتوازى مع النموذج الأولي في قصة آدم وحواء ، التي وسوست لآدم بمساعدة إبليس مجسدا في الأفعى ..فأخرجته بفعلته هذه من جنته " وفق النموذج الديني "فبسبب الفضول والوسوسة طرد كل من آدم وأدهم من الجنة التي ظل كلاهما يتوق للرجوع إليها وحين اكتشف الجبلاوي المعصية ، طرد ابنه ادهم من البيت الكبير (الرواية ص 48–49) . وهنا كان لابد لأدهم من العمل ، لتأمين الكفاف للبيت الجديد الذي ينتظر فيه وليدا جديدا ، فكان العمل الشاق المضني كما وصف الكاتب والجرب طال النهار خلف عربة " الخيار والبطاطا " [6]

وعندما تلد أميمة –ونموذجها الأول "حواء– توأما هما قدري وهمام– ونموذجهما "قابيل وهابيل " – يكبران ويمتهنان رعي الغنم ، ثم تحدث المفاجأة التي انتظرها أدهم طويلا، حين يرسل الجد الجبلاوي لهمام يدعوه للسكن في البيت الكبير "الجنة" لما وجد فيه الحد من طيبة وخلق قويم ، بينما يهمل قدري لأنه ارتكب معصية مع ابنة عمه "هند".

وبهذا التفضيل الواضح ، تثور الغيرة في قلب قدري ..فيرتكب جريمة القتل البشعة ، حين يقتل أخاه ويدفنه بعد مشاجرة بينهما . [7]

ولو نظرنا إلى سياق السرد الروائي، لوجدنا أن عملية القتل قد جاءت مقحمة فلا مسوغات قوية تجعل قدري يقتل أخاه، ولقد صور الكاتب شخصية قدري على أنها شخصية تؤمن بالعنف والقوة للوصول إلى ما تبتغي، إلا أن الأحداث لا تستدعي عملية القتل هذه، لولا أن الكاتب قد رسم مسبقا مخططا هيكليا لروايته بحيث يتتبع فيه النموذج الأولي للأفعال التي تكون القصة الدينية "نموذج قابيل وهابيل ". فالمكانة التي منحها الجبلاوي لهمام لم يقبلها همام ورفضها لأنها لم تتسحب على عائلة أمه وأبيه وأخوته، فما معنى أن يقتله أخوه لاختصاصه بمكانة دونه، على الرغم من عدم قبوله لها ، فما تم في سياق الرواية غير مسوغ منطقيا في إطار الأفعال ، ولكن النموذج الأولي غلبه فتبعه .وبهذا يكون القسم الأول من الرواية إعادة للنموذج الأولي " في سفر التكوين " التوراتي، وإن تجاوز الكاتب تفصيلات كثيرة ، إلا أنه كتب هذا القسم ، وسفر التكوين التوراتي حاضر في ذهنه بعموميته غالبا ، وبتفصيلاته أحيانا .

وما خروج الكاتب عن بعض الأفعال في الرواية ، إلا مراعاة لطبيعة العمل الروائي وما يقتضيه من أساليب وطرائق قد لا تتوافق والأفعال في النموذج الأولي المستوحى.

وفي القسم الثاني "جبل" يمثل نموذج "موسى" الأولي في الأسماء والأفعال، فجبل طفل يتيم ، يغتسل في بركة ماء ، فتنشله زوجة الناظر " ناظر الوقف " من الماء (كما أنتشل موسى من الماء من قبل ابنة فرعون..) ثم تقوم زوجة الناظر بتربيته ، كما فعلت ابنة فرعون ، وجبل مثل نموذجه الأولي " موسى " لما عرف أحوال أخوته وعذاباتهم ، ينضم بقلبه إليهم إلى أن يرى واحدا من الفتوات يحاول قتل أحد أبناء جلدته " دعبس " فيقوم بقتل الفتوة.[8]

ثم يهرب "جبل " ويصادف أختين تصارعان آخرين من أجل الحصول على الماء ، فتعجبه واحدة منهما لقوتها وأدبها ، وهذا ما حصل مع موسى في أرض مديان حيث يصادف عمه " يثرون" الكاهن.[9]

ثم يدعى جبل للسكن مع أبي الفتاتين "المعلم البلقيطي" الذي يعمل حاويا ، فيتعلم جبل مهنة عمه بسرعة كبيرة ، ويغامر بالعودة إلى الحارة كما فعل نموذجه الأولي "موسى" وتكون بداية ثورته من خلال لعبة بث الثعابين في البيوت ..وهذا ما يتوافق بشكل من الأشكال مع قصة عصا موسى وقدرتها على التهام حيات السحرة، مما أدى إلى جزع فرعون كما جزع الناظر وفتوات الحارة .

ثم يقابل "جبل "الجد الأكبر "الجبلاوي" النمط الأولي للإله ..ويكون ذلك فوق جبل قرب صخرة هند، كما حصل مع موسى الذي قابل الله على هيئة نار متقدة في العُلَّيْقَة، لم يستوضحها "موسى" كما لم

يستوضح "جبل " صورة جده الجبلاوي حين قابله وكلفه بإنقاذ شعبه من الذل والمهانة الواقعة عليه ، كما دعا الله موسى لإنقاذ قومه [10] وأيده بقوة من عنده ...ثم تتوالى الأحداث ، لينتصر جبل ويسود عهد الرخاء والعدل والمساواة .

عاش الناس في أمان واستقرار ، لكن ثمة مشكلة صغيرة تقوم بين "دعبس" صديق جبل، وبين رجل فقير اسمه " كعبلها " فيقوم دعبس بإيذاء عين الرجل، ولما بلغ الأمر جبلا أصر على أن يأخذ " كعبلها" الرجل الفقير حقه من دعبس وذلك بإطفاء عين دعبس ، هذا ما يشير إلى الشريعة التي جاء بها موسى ، وأشار إليها الكاتب من خلال تصرف شخصية جبل في الرواية محققا مقولة " العين بالعين والسن بالسن "، واختيار الكاتب للعين في سياق الرواية دون أي عضو آخر في الجسد قصد إليه قصدا محاكاة للنموذج الأولي للأفعال .

وفي نهاية هذا المقطع يقول الكاتب : (هذه قصة "جبل" كان أول من ثار على الظلم في حارتنا ، وأول لمن حظي بلقيا " الواقف " بعد اعتزاله). [11]

وفي هذا توافق واضح مع تمام في النموذج الأولي " موسى " ومقابلته "لله"، وحمله مسؤولية إنقاذ شعبه مما يعانون في أرض مصر .

أما القسم الثالث : الذي يتحدث عن "رفاعة " الذي يشكل النموذج الأولي للسيد المسيح " المخلص المنتظر " الذي انتظره آل "جبل " والحارة بعد أن استشرى الظلم مرة أخرى ، فيبدأ بهرب " العم شافعي " مع زوجة الحبلى الشابة " عبدة" ونموذجها الأولي للسيدة "ميم " العذراء ما إن بشرها ملاك الرب بأنها ستحبل وتحمل كلمة الله " المسيح " حتى قالت :

(ها أنذا أمة الرب)... [12]

هرب شافعي من وجه البلطجي الفتوة " زنفل " قاتل الأطفال ، الذي قتل طفلا في شهره الأول ، يقول شافعي : (المجرم الملعون ، خطف وليد " سيدهم " يباع لحمة الرأس ، ثم لم يسمع عن الوليد بعد ذلك أبدا ، لم تأخذه رحمة بطفل في شهره الأول ، وتتساءلين أين سألد ؟ ستلدين بين أناس لا يقتلون الأطفال) . [13]

وهذا ما يعيدنا إلى نموذج هيرودس "الطاغية" ملك اليهود أيام ولادة السيد المسيح ، الذي أخبره المجوس عن ولادة "ملك اليهود " فطلب إليهم أن يدلوه عليه عند عودتهم ، ثم يهرب "يوسف النجار " مع " مريم العذراء " إلى مصر ، ولم يخبر المجوس "هيرودس " عن المكان الذي وجدوا فيه الوليد لم يرجعوا إليه ، ولم رأى "هيرودس " أن المجوس قد سخروا منه ، غضب غضبا شديدا فأرسل وقتل جميع الصبيان الذين في بيت لحم ، وفي كل تخومها من ابن سنتين فما دون :

الإنجيل: (حينئذ ..لما رأى "هيرودس " أن المجوس سخروا به ، غضب جدا ، فأرسل وقتل جميع الصبيان الذين في بيت لحم وفي كل تخومه من ابن سنتين فما دون بحسب الزمن الذي تحققه من المجوس ...) [14]

ثم عاد " يوسف النجار " بـ " مريم ويسوع " بعد موت الطاغية "هيرودس"، وهذا ما حدث مع شافعي النجار ، إذا عاد بعد موت الفتوة " زنفل " فاستقبله أهل الحارة بود وترحيب، ففتح حانوتا للنجارة ..ويلحظ تشابه مهنتي شافعي ويوسف النجار ، ومحاولة كل منهمكا تعليم الصبي المهنة ..

ثم تمضي الأحداث بتساوي واضح بين أحداث الرواية ، والأفعال في الأنماط الأولية في قصة حياة السيد المسيح ، حين يهتم "رفاعة " بالعلم الذي يجده عند زوجة الشاعر جواد " أم بخاطرها " فيتعلم مهنة إخراج العفاريت ليداوي الناس من أمراضهم ولم يهتم بالمال الذي يسرقه الناظر والفتوات من الوقف ، ونادى " بالحب والسلام " .. كما فعل السيد المسيح حين كان يجوب البلاد ليخلص الناس من الأمراض والعفاريت ، ولم يدع إلى العنف والقوة ، بل إلى الحب والسلام . [15]

(وكان يسوع يطوف المدن كلها والقرى ، ويعلم في مجامعها ، ويكرز ببشارة الملكوت ، ويشفي كل مرض وكل ضعف في الشعب ...) [16]

وكما كان السيد المسيح لا يهتم بتقويض السلطة الزمنية ، بل دعا إلى طاعتها ، فعندما عرض الفرنسيون على السيد المسيح قطعة نقود عليها صورة قيصر ليوقعوا به قال (أعطوا ما لقيصر لقيصر ...وما لله لله ..) . [17]

وكذلك كان رفاعة يدعو إلى ترك إلى الوقف ، وترك الناظر ليتصرف به، ولم يهتم إلا بشفاء الماس ، ورفع سويتهم الأخلاقية والحضارية ، وقال "لأم بخاطرها ": إنه يرغب من كل أعماق قلبه في تلقي أسرار الزار،فسألته: أتطمع في المال الكثير؟ فأجابها بأنه في تطهير الحارة يرغب، لا في المال الكثير ..وأكد قائلا :(إن أحكمَ ما في علك أنك تهزمين الشر بالطيب الجميل).[18]

كما يتساوق تشوق أهل الحارة لمخلص يخلصهم من الشياطين مع ما يشبه تشوق اليهود آنذاك إلى مخلص يخلصهم من حكم الدولة الرومانية ويعيد إليهم القوة والهيبة .

يقول الشاعر "جواد " في الرواية(إن الحارة بحاجة إلى من يخلصها من شياطينها كما تخلصين الممسوسين من عفاريتهم) [19] كما أن غياب "رفاعة " غير المسوغ [20] ، الذي لا يقتضيه نسق الرواية وتراتب الأحداث فيها، لا يفسره لدى كاتب متميز مثل نجيب محفوظ إلا استلهام حياة النمط الأول " يسوغ المسيح عيسى بن مريم"الذي ذهب إلى البرية فصام أربعين يوما ، ثم تعرض لتجربة الشيطان وانتصر عليه .

كما كان تميز شخصية "رفاعة " بالرقة والوداعة ، في حارة لا يكون التميز فيها إلا للقوة والعنف ، وفي هذا خروج على منطق الأحداث ، فكل تميز في هذه الحارة يسير باتجاه القوة ، ولا مكان لأخلاق كأخلاق رفاعة .

(عاد حجازي يقول مؤكدا : القوة القوة ، بغيرها لا يسود العدل فقال رفاعة بإصرار رغم نظرات أبيه إليه: الحق ..إن حارتنا في حاجة إلى الرحمة).

وإذا تتبهنا إلى طريقة رفاعة في الخطاب .."الحق إن حارتنا في حاجة إلى الرحمة " تذكرنا أسلوب السيد المسيح في الخطاب حين كان يرد على أسئلة الناس فيقول: " الحق .. الحق أقول لكم لا يمضي هذا الجيل حتى يكون هذا الجيل حتى يكون هذا كله .. السماء و الأرض تزولان ولكن كلامي لا يزول "[21]

إن موقف رفاعة من " ياسمينة " الزانية[22]، يتساوى مع موقف السيد المسيح من المرأة الزانية ، عندما صادف جماعة تريد رجم امرأة زانية بالحجارة فأوقفهم وسألهم ، فقالوا هي زانية ، وقد استوجبت حكم الناموس ، فقال :" من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر " فصمت الجميع ..كما تطابقت أحداث الليلة الأخيرة في حياة رفاعة مع أحداث النموذج الأولي، سواء من حيث العشاء الأخير. [23]

أم من حيث موعد التسليم رفاعة " قبيل الفجر عندما يصيح الديك"..."واستمر الانتظار والترقيب، حتى صاح أول ديك "[24] كما تطابقت ردة فعل رفاعة مع النموذج الأولي "السيد المسيح " إزاء عملية القتل : ((لماذا تبغون قتلي؟)) فهوى "بيومي" بنبوته على رأسه بشدة فصرخ رفاعة صرخة عالية ، وهتف من أعماق قلبه " يا جبلاوي"[25]

وهذا ما جرى للسيد المسيح بحسب الانجيل: [صرخ يوسع بصوت عظيم قائلا "إيلي ..إيلي لما شبقتني " أي إلهي إلهي لماذا تركتني ..فصرخ يوسع أيضا بصوت عظيم وأسلم الروح] .فالتوافق يكاد يكون حرفيا .

أما القسم الرابع فكان حكاية " قاسم " من حي الجرابيع ربيب عمه " زكريا" وقد عمل بداية مع عمه ، ثم رعى الغنم للحارة كلها ، وكان يتصف بالذكاء و الأمانة مما رشحه ليكون زوجا لسيدة الحارة وأغنى الناس فيها السيدة " قمر" ويصبح وكيلا لجميع أعمالها ، وجملة هذا يشير إلى نمط " محمد(ص) " وما مر معه في بداية حياته مع السيدة "خديجة بنت خويلد "

كره " قاسم " الفتوات وأحب الناس وأبناء الحارة جميعا دونها تميز بين أبناء حي وآخر ، ثم تصله رسالة الجبلاوي مع خادمه الخاص " قنديل " ونموذجه الأولي "جبريل" – ولنلاحظ التوافق الصوتي بين الاسمين – وكان مضمون الرسالة من الجبلاوي هي :" إن جميع أبناء الحارة أحفاده على السواء ، وإن الوقف ميراثهم على قدم المساواة ، وأن الفتونة شر يجب أن يذهب ، وأن الحارة يجب أن تصير إمتدادا للبيت الكبير " [27]وعلى قاسم أن يحقق هذا كله .

وعندما عزم على تنفيذ الرسالة ، وقفت في وجهة عقبات كثيرة ووقف إلى جانبه كل من صديقيه " صادق" ونموذجه " أبو بكر الصديق " و" علي بن أبي طالب" وانظر إلى طريقة اختيار الأسماء ، صادق و الصديق ، وحسن وأبو حسن " علي بن أبي طالب"."فشد صادق على يده قائلا: إني معك. وكور حسن قبضته قائلا: وأنا معك في الخير و الشر معك.."[28]

ويشكل "قاسم " زمرة من الأتباع المدربين على القتال ..ولكن الحصار يشتد بهم شيئا فشيئا ، فيفر أتباعه، ثم يتبعهم ويبنون حيا جديدا هربا من بطش الفتوات ، الذين يلحقون " قاسما " وأتباعه إلى الجبل ويقع القتال ..فيقتل زعيم الفتوات وعدد من الزعماء و الرجال ثم تتوالى الأحداث ، إلى أن يعود " قاسم " إلى الحارة

ويقضي على الفتوات وأعوانهم ، ويذهب إلى بيت ناظر الوقف الذي يهرب مع أهله ، ليتسلم " قاسم : الوقف ويحقق العدل ويعلن أن الوقف للجميع ما هو وعد الجبلاوي " لأدهم " آدم " .

وفي جملة الأحداث يتابع الخطوط الرئيسية لقصة حياة النبي الأمين "محمد (صلى الله عليه وسلم)" من خلال الأحداث والأفعال والشخصيات . وهو بهذا يعيد سرد الأنماط الأولية محتديا خطوطها الرئيسية في قصص الأديان التي مرت على المنطقة العربية .تلك الأنماط التي تشكل اللبنات الأساسية في ثقافة أبناء المنطقة العربية ، بل العالم جله، وتتضمن تلك الصور العميقة التي تنطوي على مغزى كوني ، وهي الصور الأعمق رسوخا في نفوس أبناء المنطقة العربية ، ونفوس أبناء قسم كبير من البشرية . وقد لجأ " نجيب محفوظ " إلى هذه الأنماط واعيا عامدا متعمدا، وأراد بهذا نوعا من الاستفزاز الإيجابي للمتلقي ، وتنبيهه إلى أن المقصود ليس إعادة إنتاج ما هو معروف ، بل البحث عما هو مقصود من وراء ما هو معروف وفق رؤية معينة، توظف لإقامة قيم يمكن أن تستمد من الماضي، ويمكن أن تسن اعتمادا على هذا الماضي .

فليس ثمة ما يمنع الصراع مع القوى السالبة ، وقد قام كل رموز تلك الأنماط ..والتي تتمثل في الأنبياء بهذا الصراع لإعلاء قيم الحق والخير والعدل ، وما الذي يمنع استمرار هذا الصراع، وما دام النمط الأولي للنبي لم يعد ممكن التكرار فلنخلق هذا النمط ممثلا في العلم الحديث هذا الساحر الذي يفعل الأعاجيب وليس علينا أن نستخدم ما قدمه العلم ممثلا بكراس " عرفة " لنتابع عملية الصراع ولنصل إلى ما وصلت إليه الأنماط الأولية بالمجتمع الذي قادوه وساروا به إلى زمن العدالة والسلام ، واللجوء إلى الأنماط الأولية المعروفة أجدى من ابتداع أجواء قد تبدو غريبة عن الوجدان الجمعي لأبناء المنطقة ، وغريبة عن إدراك المتلقي وفهمه.

ومن هنا لا يكون طرح "عرفة" إشارة إلى انتهاء زمن الألوهية و"الميتافيزق" بل هو بديل في زمن بات من المحال فيه وجود النمط الأولي الذي يتمتع بالقدسية التي استطاعت أن تقود الناس وتحرضهم على العمل للوصول إلى قيم العدالة والمساواة والحرية ..

ومن هنا كانت نهاية "عرفة " ملفتة جدا باختلافها عن نهاية جميع من سيقوده ، فحين يقبض عليه مع عواطف ، يأخذها رجال الناظر ويدفنان حيين .[29]

وفي هذا إشارة إلى أن العلم مستمر في قيادة المجتمع والحياة ولن يكون ، وإذا كان لم يصل بعد إلى مرحلة إسعاد البشرية، فإنه لابد واصل، لأن عهده لم ينته ولن ينتهي، لأن هناك من يواصل الدرب:حنش" ورفاقه..(فصاح عرفة:حنش هرب بكل الأسرار هرب، وسوف يعود يوما بقوة لا تقاوم، فيخلص الحارة من شرك).[30]

ولا بد من انتصار العلم هذا ، فيقضي على الظلم والظلام ، ويعيد التوازن المفقود .

تشكل المنظومة الفنية حين أبدعت ترابط الأفعال فيها وفق منطق الرواية الخاص ، إلا في قليل جدا من المواقف ، حيث لجأ النمط الأولي الكاتب على مدارة أفعاله ، ولكن ذلك لم يخرجها عن فنيتها وامتلاكها

لمنطقها الفني الخاص ، الذي يقوم على مجموعة الحوافز التي تتحكم بالعلاقات القائمة بين شخصيات الرواية .

مما جعلها تحافظ على هيكلها الروائي المتماسك وإيقاعها وزمنها السرديين، دونما اختلال أو ارتباك ، كما استطاعت أن تبني رموزها ومستوياتها التعبيرية بوعي وبدقة ، وتناسق بين عناصرها الفنية والقيمية التي أرادت طرحها.

والرواية من هذا الاتهام براء ، إذا ما أحسنت قراءة مستويات التوظيف للأنماط الأولية المستعملة ودلالاتها التي لا تتوقف عند حدود الظاهر من التوظيف لتلك الأنماط .

طمحت الرواية إلى تقديم رؤية شاملة لتاريخ منطقتنا – إن لم أقل للوجود البشري كله بأسلوب روائي عذب ، فمنذ البدء كان الصراع يتأجج ويستعر بسبب المصالح المادية، بسبب استئثار فئة قليلة بالناتج الوطني أو القومي "الوقف" على حساب الفئات الأوسع .

ولا يعود التوازن إلا عبر عملية صراع كان يقودها رمز من رموز الأنماط الأولية الذي ما زالت الذاكرة الجمعية تختزن أعماله وتتمنى عودته بشكل " يوتيبي " . عسى أن يعيد التوازن والعدل المفقودين .

ثم لا يلبث الصراع أن ينجلي عن تركيب جديد ، يصبح مع الزمن حالة جديدة فاقدة للتوازن مرة أخرى، وتشكل وضعا شائنا على الظلم مما يقتضي وجود النقيض في عملية ديالكتيكية مادية واضحة يتولد فيها الوضع مع نقيضه .

ولكن المحرك الأساسي هو الناتج الإجمالي للمجتمع الذي يتمثل في "الوقف" الذي يستولي عليه فئة قليلة ، فيتحرك الصراع من جديد ليقول الكاتب : (إن الحياة عملية ديالكتيكية جدلية يقوم جوهرها على الصراع المستمر للاستيلاء على الناتج الوطني العام " الثروة الوطنية أو القومية " وربما يحل العلم هذا الصراع...)

ويقوم الهيكل العام للرواية على :

1– اغتصاب مال الوقف " الثروة العامة " وحصره في أيدي زمرة تشكل السلطة الزمنية التي تشتري حماتها ، فمقابل حماية هذه السلسلة "الناظر " تتخلى السلطة عن قسم من الناتج القومي، تضمن به ولاء هذه الفئة" الفتوات وأعوانهم " .

2– توافق مصالح السلطة الزمنية "الناظر " والفتوات يجعل منهما طبقة متضامنة لا يفرط أحدهما بالآخر إلى حين امتلكت السلطة أساليب أخرى من القوة التي وفرها العلم والمعرفة فاستغنت عن هؤلاء واستأثرت وحدها بالثروة العامة .

3– حرمان الفئات الأوسع من الاستفادة من " الثروة العامة " "الوقف" يؤدي إلى التذمر والضيق مما يطرح مسألة " المخلص " " النموذج الأولي " بأشكال مختلفة تؤدي إلى الثورة لتصحيح الأوضاع وإعادة التوازن .

أما النهاية فقد جعلها الكاتب نهاية مفتوحة ، تحمل الكثير من التفاؤل وتؤكد على الموقف الديالكيتيكي الذي سار الكاتب في هديه في الرواية كلها .

فالكثير من الشبان بدؤوا يختفون من الحارة ليشكلوا قوة جديدة تقف في وجه "قدري" ويستمر الصراع...

نظر من وجد في هذه الرواية مجرد اعتداء على الدين ، وعلى الفكر الميتافيزيقي، لأن هذه الفئة من الشبان التي تؤمن بالعلم ولا ترفض المفكر الآخر هي الفئة التي يطرحها "نجيب محفوظ"لتكون المخلص في هذا الزمن الذي فقد المخلص " النمط الأولي " الذي بات وجوده متعذرا فها هو يقول في ختام روايته (لا بد للظلم من آخر ولليل من نهار، ولسوف نرى في حارتنا مصرع الطغيان ومشرق النور والعجائب). [30]

إن رواية "أولاد حارتنا" تمثل أنموذجا واضحا من النماذج الأولية من حيث استلهامها وإن اختلفت عن هذا المفهوم قليلا من حيث وعي الكاتب لتجربته هذه ، فهو يكتب وفي ذهنه تلك النماذج ، يحاكيها بأسماء مختلفة ومن خلال تقنيات سردية مختلفة ، وقد أتاح له هذا الاستلهام الواعي لتلك النماذج الأولية من حياة إنساننا العربي ومن أساطيره ، وحكاياه ، وديانات ومعاناته ، وتاريخه ، أو يوقظ المتلقي بل أن يستفزه بشكل يجعل حاسة النقد الواعي لما يعانيه في حياته، متيقظة متنبهة ، لبناء وعي قادر على فهم منظومة الصراع المستمرة في هذا الوطن ، وإن لم يكن في هذا الوجود الإنساني منذ الأزل وإلى الأبد .

إنها رواية فذة لم تأت أنماطها من اللاشعور، بل من الوعي ليقول الكاتب ما يريد، وليبني الوعي الذي يريد من خلال ما هو معروف، فلا ينشغل المتلقي "بالحدوثة " لأنه يعرفها مسبقا ، بل يتيقظ إلى أن المراد ما يكمن خلفها من مقولات تلخص تاريخ الصراع في منطقتنا والعالم ...

الإحالات

1– ويمزات ، ويليام ، النقد الأدبي تاريخ موجز " النقد الحديث " ج4 ، ص212.
بروكس ، كلينث ، ترجمة د.حسام الخطيب ومحي الدين صبحي ، مطبعة جامعة دمشق ، 1977 م .
2– ويمزات ، وبروكس ، المرجع نفسه ، ص 212.
3– محفوظ ، نجيب : أولاد حارتنا ، دار الآداب ، بيروت ،ط4، 1978 ، ص 5.
4– محفوظ ، نجيب : المصدر السابق ، ص 19 .
5– الكتاب المقدس: تكوين ، إصحاح "3" ، ص 45 ، 21 ، 22 ، 43 ، 44. دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط
6– محفوظ ، نجيب : المصدر السابق ، ص 54 .
7– محفوظ ، نجيب: الرواية ، ص 96 .
8– محفوظ ، نجيب : الرواية ، ص 138 .
9– الكتاب المقدس : العهد القديم خروج "2" ص 16 – 22 .
10– الكتاب المقدس :
11– محفوظ ، نجيب: الرواية ، ص 209 .
12– الكتاب المقدس : العهد الجديد (لوف – الإصحاح الأول) ، ص 27–28 .
13– محفوظ ، نجيب : الرواية ، ص 215 .

14– الكتاب المقدس : العهد الجديد (متى– الإصحاح الثاني) ، ص 16 – 17 – 18 .
15– الكتاب المقدس : العهد الجديد متى (إصحاح 8) .
16– الكتاب المقدس : العهد الجديد متى (إصحاح)، ص 25–26 متى (إصحاح 22) الآية، 21 .
17– محفوظ ، نجيب : الرواية ، ص 234 .
18– محفوظ ، نجيب : الرواية ، ص 231 .
19– محفوظ ، نجيب : الرواية ، ص 239 – 240 –241–242 .
20– محفوظ ، نجيب : الرواية ، ص 245 .
21– الكتاب المقدس: مرقص (الإصحاح "13")، ص 20–21. / متى(الإصحاح"5")، ص.18
22– محفوظ ، نجيب : الرواية،ص 254–255 .
23– محفوظ، نجيب: الرواية،ص 267 –والكتاب المقدس، متى (الإصحاح "26")، ص20 .
24– محفوظ ، نجيب : الرواية ، ص 292 .
25– محفوظ ، نجيب : الرواية ، ص 295 .
26– الكتاب المقدس : متى (إصحاح "27") ، ص 46 – 50 .
27– محفوظ ، نجيب : الرواية ، ص 353 .
28– محفوظ ، نجيب : الرواية ، ص 359 .
29– محفوظ ، نجيب : الرواية ، ص 547 .
30– محفوظ ، نجيب : الرواية ، ص 546 .
31– محفوظ ، نجيب : الرواية ، ص 552 .

المصادر والمراجع

1– الكتاب المقدس ، تكوين – صحاح / 45.44.43.22.21 / دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط 1986 م .
2– محمود نجيب ، أولاد حارتنا ، دار الآداب ، بيروت ، ط4، 1978 .
3– ويمزان ويليام ، النقد الأدبي تاريخ ، مجز "النقد الحديث" "ج4، ص 212 .
4– بروكس كلينت ، ترجمة د.حسام الخطيب ومحي الدين صبحي ، مطبعة جامعة دمشق 1988م.